قرصان بين أسنانه منشار

ليليان

معًا إلى الأبد في نعيم الجحيم

فوق عشب الملل تململت ململ . . فضجر منها الملل وتحول إلى قرصان بين أسنانه منشار ، وبغل نشر أيامها ونثرها في الفراغ . . فبملل جمعت أشلاء أيامها ، وبملل دفنتها في تراب الأيام . . فيئس الملل من فراقها ، وانتحر على بابها . . فانتظرت بملل أن يزورها شبح الملل .

غمره الإيمان بطوفان نوره ، فعاد تولستوى إلى الكنيسة . . وصلى وصام ، وزهد في الدنيا ، وتجاهل سونيا ، وأمسك عصا الحجاج ، وزار أديرة روسيا . وناقش وجادل رجال الدين في نصوص الإنجيل ، ولم ترق له تفسيراتهم . . وشبّا فشبّا ثار على تعاليم الكنيسة . واتهمها بخيانة رسالة المسيح . . وأعاد كتابة الأناجيل الأربعة ، وأضاف إليها إنجيل ليون ، ثم سافر إلى سمارا في صيف ١٨٨١ لإراحة عقله من عناء التفكير . . وأكل قلب خروف ، وانتابته نوبة حنان زوجية سرعان ما تلاشت عند عودته إلى سونيا وإلى عزبته . .

دموع من زئبق

منذ فترة وسونيا تلح على زوجها ليوافق على ترك الريف والإقامة في موسكو من أجل أولادهما . فلا يمكن أن يواصلوا تعليمهم إلى ما لا نهاية في الريف مع مدرسين خصوصيين . . وقد تناقشت معه مائة مرة ، ألف مرة ، مليون مرة ، وأخيرا قبل سفره إلى سمارا خلع ضرس عقله ، ووافق على انتقال القبيلة بأكملها إلى المدينة . . فسافرت سونيا رغم حملها وعظمة بطنها إلى موسكو واستأجرت بيتا مفروشا لا شقة .

وعند عودة تولستوى إلى عزبته وجد بيته مقلوبا رأسا على عقب . . الكل يتأهبون للرحيل . الخدم يعدون البياضات ويرصونها في الحقائب . . الأولاد يضحكون وينامسون بمرح ، ويقفزون بشقاوة فوق الحقائب . . سونيا تجرى وبطنها أمامها من حجرة إلى حجرة . . الكل مشغولون عنه . . لا أحد يحس بعذابه . . لا أحد يسمع تأوهاته . . لا أحد يراه وهو يجر رجليه بحزن . . في الحديقة ، ويودع أشجارها شجرة شجرة ، كما لو كان لن يراها أبدا . . ويوم عيد ميلاده لم يقل له أحد ، كل سنة وأنت طيب ، . . لا سونيا ولا أولاده . . فلم يفلت هو الذى هناه بعيده ، وأطفأ معه ثلاثا وخمسين شمعة ، ثم سجل أسماء في يومياته وكتب . . « ٢٨ أغسطس ١٨٨١ : إلى حزين . . لم يتذكر أحد من أفراد أسرتي عيد ميلادي . . أحس برغبة في الموت » . . أحقا نسيت سونيا عيد ميلاده ، أم عمدا تجاهلته ؟ . . الأرجح أنها تذكرته ثم نسيته عمدا . . ليكوى هو الآخر بنار النسيان . . فقبل أيام معدودة ، وفي يوم ٢٢ أغسطس بالذات كان عيد ميلادها السابع والثلاثون . ونسيه .

وفي منتصف شهر سبتمبر انتقلت الأسرة إلى موسكو ، إلى مسكنها الجديد . . البيت واسع ومفروش بذوق وفن ، ولكن جدرانه لا تكتم سرا أو صوتا . . فهي جدران رمالة وخائنة . واختارت سونيا أوسع وأجمل حجرة لتكون مكتبا لزوجها . ولكي يتم بالسكون المفقود أمرت الخدم بأن يمشوا على أطراف أصابعهم . وعلمت أولادها في الهمس والوشوشة . . فرق تولستوى الصمت المفروض حوله ، وزمزم وزمجر بأعلى صوته . واتهم زوجته بأنها تكرهه . . فلو كانت تحبه حقا كما تدعي لكانت فكرت في راحة نفسه قبل راحة جسده ، ولكانت اختارت له حجرة صغيرة وفقيرة وعارية لا هذه الحجرة التي كل مقعد فيها يكفي لإدخال السعادة في قلب فلاح ، فيثمن مقعد واحد يمكن شراء بقرة أو حصان . وسالت دموع من زئبق على خدوده فلم تمسحها سونيا بمنديلها ، إنما أحضرت ميزان الحرارة وجمعتها فيه . وقاست درجة حرارته فوجدتها ٣٧ درجة تحت الصفر . فأشعلت نار المدفأة ، وتركته يبكي على العز والفخفخة التي يعيش فيها .

وتحزم أدارت دفة البيت . . وساعدت أولادها على الاستقرار في حياتهم الجديدة . . والتحق سيرج (١٨ سنة) بجامعة موسكو ، وقيدت تانيا (١٧ سنة) اسمها في مدرسة خاصة للرسم . فهي تهوى الفن . أما ايليا (١٥ سنة) وليون (١٢ سنة) فقد فكر أبوهما في أول الأمر في إدخالهما في مدرسة حكومية . ولكن حينما طلب منه ناظر المدرسة أن يضمن له كتابة حسن سلوكهما ، رفض رفضا باتا أن يتحمل هذه المسئولية . . وتساءل بدهشة . « كيف يستطيع شخص أن يضمن سلوك شخص آخر غيره ؟ » . ووضع ابنيه في مدرسة خاصة غير مطلوب فيها من أولياء الأمور أن يكونوا مسئولين عن سلوك أبنائهم .

وكلما لمح تولستوى سعادة من حوله تجاههم الحديدية ازداد بغضه للمدينة وزبائنها وأكاذيبها . وكتب قلمه بحماسة . « ١٥ أكتوبر ١٨٨١ : مر شهر على انتقالنا إلى موسكو . . أسوأ أشهر في حياتي . . الكل يستقرون . . متى سيعيشون ؟ . . يالهم من تعساء يفعلون كل شيء في الحياة لأن الآخرين يفعلونه ويتسون أن يعيشوا . . المدينة ؟ حجر ونتانة وعفونة . . ورفاهية وبؤس وفجور وفسق . . الأغنياء اللصوص تهبوا الشعب . . وأتعموا في الملذات والحكومة والجيش والشرطة لا هم لهم سوى حماية عربدتهم . . »

فوق الريف المروج الخضراء والذهبية ، ومنابل القمح ، وأشجار الغابة تستر على الفقر وتحجبه عن العين . . أما في موسكو فلا يمكن تجاهل هذا الظلم الاجتماعي . . فالبؤس ملموم ومركز ومكدس ومحكوم في مكان واحد ، ولا بد أن تراه العين حتى إن كانت عمشاء . فهو كالخراج على الجبهة . . ومن يأكل حتى الشبع في هذه المدينة مذنب . . وأحس تولستوى بالذنب لأنه يأكل في أطباق من الخزف الصيني منقوشة عليها الحروف الأولى من اسمه ، ويملأ بطنه بشتى ألوان الطعام ، وينام على فراش وثير ، ويجلس على مقعد مكسو بالحرير ويمشي وتحت قدميه سجاد عجمي وفوق رأسه تحف بلور ، ويخدمه خدم بصدريات أحمر وقفاز أبيض .

وارتفع أنينه وملأ البيت ، وغطى على أنين الكسيس الطفل الحادي عشر الذي أنجبته له سونيا يوم ٣٠ أكتوبر ١٨٨١ .

وتعجرد أن استردت سونيا صحتها تعرضت لأزمتها . . وعندما امتلأ تولايها بالفساتين الشفاف والداخلية ، ترددت في صحبة ابنتها تانيا على المسارح ودار الأوبرا ، وفتحت أبواب بيتها كل يوم خميس لاستقبال الأمراء والأميرات وكل حامل الألقاب . واضطر تولستوى رغم أنفه الكبير أن يجامل ضيوف زوجته . ويجلس معهم ، ويتحدث معهم ، ويبتسم في وجوههم ، ويلعنهم في سره . ولكنه رفض بعناد أن يرتدى بدلة وقبعا بياقة منشية ، ورباط عنق يخنق رقبته . فهو يتمسك بقميص الفلاحين الرمادى تماما كما يتمسك بصوت رمادى دبلوماسي وبدموع تماسيح رمادية . . أن يخون مبادئه خيانة بسيطة من أجل سواد عينيها ، ويرتدى قبعا من الستان الحرير الأسود . فوافق .

وتحمل تولستوى عذابه الحريرى الأسود شهرين ، ثم هرب منه وعاد إلى الريف وإلى عذابه الأخضر ، وإلى تأملاته الفلسفية والدينية . فرنت إليه بعتاب خادمته العجوز أجاتا وقالت له مبرطمة : « الكونت يجلس هنا بهدوء يتأمل السماء والنجوم ويتسح لحيته ، ويترك الكونتسة وحدها هناك مع ثمانية أطفال . .

فوخزه ضميره وخزة خفيفة . وكتب إلى سونيا يوم ٤ فبراير ١٨٨٢ . . « كنت بحاجة إلى الريف ليذوب جليدى النفسي ، وأفكر بهدوء في الطريق الذى يجب أن تسلكه البشرية للخلاص من عذابها وتعاستها . . أنت تعرفين كم تألمت في موسكو وأنا أرى الفقر والبؤس والشر والرذيلة . . »

فردت عليه سونيا بحكمتها الأنثوية . . « بدأت أعتقد أن الرجل السعيد حيا يفتح عينا ليرى الوجه القبيح للحياة ، ويغمض عينا كي لا يرى وجهها الحسن . فهو مريض . . يجب أن تعالج نفسك . . أقول لك هذا بحسن نية لأن هذه هي الحقيقة . . أكنت تجهل حتى اليوم أن في الدنيا فقراء وبؤساء ونعساء ومرضى وأشرارا ؟ . . افتح عينك المغمضة وانظر جيدا حولك . سوف ترى أن في الدنيا أيضا أناسا طيبين وسعداء ولا يطرق المرض بابهم . فليساعدك الله ! . . يودى أن أساعدك ، ولكن كيف ؟ . . أنت لم تعد بحاجة إلى حبي الآن . وياليتي أعرف ما تحتاج إليه الآن ! » .

واخترقت صرخة حب سونيا أذنيه . وخدشت قلبه . فكتب إليها بحنان مذنب : « لا تقلقي على ولا تلومي نفسك . . لم أعد أعرف لماذا كنت تعيسا وأنا معكم . سونيا حبيبتي لا أستطيع أن أعيش بعيدا عنك . . إني بحاجة مطلقة إلى وجودك . . تقولين : « أحبك ولكنك لم تعد بحاجة إلى حبي » . . أنت مخطئة . فأكثر ما احتاج إليه الآن هو حبك . . بل سعادتي الوحيدة في الدنيا هي حبك لي » .

واستمر الخطاب بالمراسلة . . ومن آن لآن كان يذهب تولستوى إلى موسكو ليرى زوجته وأولاده ويقضي معهم يومين فقط لا أكثر .

سحب الحقد

وفي أوائل الصيف اجتمع شمل الأسرة في العزبة وغربت شمس الحنان . . وتراكمت سحب الحقد . وأحس تولستوى أنه غريب وسط أفراد قبيلته . . وارتجف بردا ووحشة . . سونيا إلى جواره ولكن المسافة بينه وبينها مليون سنة ضوئية . . ولا توجد وسيلة اتصال بينهما . . لا لغتا لغته . ولا لغته لغتها . . لا هو يفهمها ولا هي تفهمه . . وكل منهما يلوم الآخر لأنه لا يفكر مثله . . هو يتهمها بالجنون لأنها تضحك في وجه الدنيا ، وهي تتهمه بالجنون لأنه يعبس في وجه الدنيا ، ويحب الكون كله وما به وما عليه ، ولا يحب أبناءه الذين هم من لحمه ودمه . ولكن كيف يحبهم وهم وحوش بلا قلب يقضون يومهم في صيد الأرانب والبط . . أن أبناءه الحقيقيين هم الذين يؤمنون بمبادئه ولا يقطفون غلة أو بقلة

أو صرصارا ولا يؤذون الحمار أو الحصان بلسعة كرياح.

إنه منذ شهر فضل الموت خوفا على ظهر حصان من أم كرياح.. كان يتنزه في عربة الليجا التي يجرها حصان، مع صديقه سيوتيف راعي الغم العجوز الحكيم، الذي اعتنق مبادئه، وانحرف بها الحصان عن الطريق، ولم تمتد يده ولا يد صديقه إلى الكرياح. وسقط الحصان في حفرة ووجدا نفسيهما.. وأساقهما تحت وأرجلهما فوق.. هذا العجوز الحكيم هو ابنه لاسيرج أوبليا. ونسي تولستوي أنه بالأمس القريب كان يتباهى بأنه صياد ماهر، ويتعالى على كل من لا يحمل فوق كتفه بندقية.

وفجأة ارتفعت درجة حرارة ابليا وبلغت أربعين درجة. وهرب الدم من عروق سونيا، وتجمد الدم في عروق تولستوي.. وجئت سونيا من بروده.. إنه يجلس كتمثال من الحجر على مقعده لا يبالي كالحجر بما يحدث حوله.. يموت ابنه.. تموت زوجته.. لا يتحرك.. وجاء الطبيب وشك في أن يكون ابليا مصابا بالتيفوس. وجلست سونيا إلى جواره وأعطته أقراص الكينين التي وصفها الطبيب.. وجاء الليل ولم تنخفض درجة الحرارة. ولم يكلف أبوه خاطره بالسؤال عنه.. وفقدت سونيا أعصابها وانفجرت في زوجها وقال إن وجوده في البيت كعدمه.. فهو لا يفعل شيئا، ولا يساعدها في شيء ولا يبالي بشيء، ولا يهتم بأحد سوى نفسه. وابيض وجه تولستوي من الغضب وصرخ في وجهها: «أعز أمنية لي أن أهرب منك ومن أولادك».

ثم دخل حجرة مكتبه وصفق الباب في وجهها. وقرر أن يمضي ليلته البيضاء على الديوان الجلد.

وبلغت سونيا دموعها.. فاختنقت.. ففتحت صندوق أحزانها.. فسالت منه دموع ودموع ودموع.. وغسلت أنهار الدموع خدودها ولم تغسل احزانها.. إنه يكرهها.. إنها تعبده.. ما العبادة؟.. أن تصل من أجل سلاسل من نار تقيدنا وتحرقنا.. إنه معبودها ومعذبها.. العذاب يجري في دمها.. النار تجري بين جلدها وعظامها، أيتحملها عذابها كما تتحملها هي؟.. النار تأكل قدميها وتسلخ جلد ظهرها.. أهذه هي ضريبة الحب؟.. يريد أن يهرب منها.. إلى أين؟.. إلى أصدقائه الفقراء.. سنقتلهم كلهم وتقتله ثم تقتل نفسها.. الموت أرحم لها من بغضه لها.. لا حياة لها من غير حبه لها.. كيف تثبت له أن سلاسل النار التي قيدها بها منذ عشرين سنة هي هي لم تتغير. تحبه اليوم بنفس نار الحب التي أحبته بها في أول يوم.. أخلع عينها وتشويها في النار، وتقطع بسكين جزار خدها، وتضع عينها المشوية على خدها وتقدمها له لتبرهن له على حبها له؟.. ألا يشفق عليها؟.. ألا يرحم عذابها؟.. ألا يعرف أنها تنتظره؟.. لماذا لم يخرج من مكتبه حتى الآن؟.. «أعز أمنية لي أن أهرب منك».. فالها في لحظة غضب.. ومن يغضب يخرس عقله ويصرخ قلبه.. والقلب لا يكذب أبدا.. أبدا لن تنسى صرخة قلبه الخالصة التي مزقت قلبها.. يهرب منها؟.. لا لن يهرب منها.. سيأتي إليها.. إنه متقلب.. يوما يكرهها ويوما يحبها.. يوما يريد أن يهجرها ويوما يريد أن يلازمها كما يلازم اللحم عظامها والرموش جفونها..

وقهر الفجر الليل.. وانتهت ليلة سونيا البيضاء، وليلة زوجها البيضاء.. وترك تولستوي مكتبه، وتسلل إلى حجرة نومه، ووجد سونيا في انتظاره. وكلمة فدمعة فعتاب قليلة.. وفي الصباح انخفضت درجة حرارة إيليا، فلم يكن مصابا بالتيفوس. وفي اليوم التالي احتفلت الأسرة بعيد ميلاد تولستوي الرابع والخمسين.

وبعد أسبوع ترك تولستوي سونيا في العزبة وذهب إلى موسكو في صحبة ابنيه سيرج وايليا.. فقد اشترى قبل أربعة شهور بيتا أعجبه، ودفع فيه سبعة وعشرين ألف روبل. والبيت لا يقع طبعا في أحد الأحياء الراقية في موسكو. إنما في ضواحيها حيث يعيش العمال.. فبالقرب من البيت يوجد مصنع للجوارب، وآخر للعطور، وثالث للغزل، وحديقة البيت هي التي أغوت تولستوي بشرائه. فمساحتها فدانان ونصف فدان تقريبا، وبها أشجار زيزفون وتفاح وكرز وخوخ. والبيت نفسه مكون من دورين وخمس وعشرين حجرة في حاجة إلى عملية تجميل وترميم.. وفي الحوش بئر ماء، فلا يوجد في البيت ماء جار.. وهذا لا يهم، فقد تعودت القبيلة التولستوية على ذلك في الريف.

إن الرجل الذي يطالب الأغنياء بتوزيع ثرواتهم على الفقراء، اشترى بيتا وأي بيت، والرجل الذي يحتقر الأمور الدنيوية أشرف بنفسه على عمليات ترميم وتجميل وزخرفة بيته!.. فهذا هو تولستوي.. وناقش تولستوي المهندس في كل صغيرة وكبيرة في البيت.. ورواتب العمال حتى لا يضحكوا على ذقنه ويطلوا الجدران بلون أدكن أو أفتح درجة من اللون يريده.. وجرى من محل إلى محل لشراء أثاث بيته، واختار الخشب الأكاجو لأنه خشبه المفضل.. وكتب كل يوم تقريرا إلى سونيا.

١٢ سبتمبر: أخبرني المهندس اليوم أن البيت لن يكون جاهزا لاستقبالكم قبل أول أكتوبر. أبواب ونوافذ الدور الأول لم يتم طلاؤها بعد.

١٤ سبتمبر: جف طلاء سقف وجدران حجرة الطعام.. ورق الحائط في الحجرة البحرية فاتح جدا.. ورق حجرة الصالون داكن جدا. أما في حجرتك فلونه رائع.

٢٨ سبتمبر: درابزين السلم الداخلي جميل جدا ولكن القضبان متباعدة ومن الممكن أن يسقط منها طفل. سوف أقول ذلك للمهندس غدا.

وهكذا كل رسالة بلاط وخشب.

وفي أول الأمر ابتسمت سونيا وهي تقرأ تقارير زوجها. ثم ذبلت ابتسامتها. وثارت عليه وعلى رسائله التي تقتصر إلى كلمة حنان وكتبت إليه «أنت لا تحدثني إلا عن الأشياء المادية. أنظن أني من خشب ولا أهتم بغير الأرضيات الخشب؟».

سيمفونية الملل

وأخيرا في يوم ٨ أكتوبر فتح البيت أبوابه ونوافذه واستقبل بالأحضان القبيلة التولستوية المكونة من تولستوي وسونيا، وابنيهما تانيا وماشا، وأبنائهما الستة وأتباعهم: اثنا عشر خادما، وطباخ خاص للأسرة وطباخة خاصة للخدم. وأعجبت سونيا

بذوق زوجها ولم يهرب تولستوي منها هذه المرة، وبقي إلى جوارها رغم بغضه للمدينة.

وكل صباح كان يستيقظ تولستوي في الساعة السادسة، ويقوم بأداء بعض التمرينات الرياضية، ثم يغتسل ويرتدي زي الفلاحين. ثم ينزل إلى الحوش ويتوجه إلى بئر الماء ويملأ بنفسه دلوا كبيرة، ثم يضعها على مزلج صغير ويجره حتى المطبخ ثم يعود إلى حجرته وينظفها بنفسه. ثم يجلس في الهيو وينظف ويلمع بنفسه حذاءه الوت.. وهو سعيد وفخور بأن في بيته التي عشر خادما. ومع هذا فهو الذي يخدم نفسه بنفسه.. وبعد تناول الفطور مع أسرته كان يأوي إلى مكتبه ولا يخرج منه إلا لتناول الغداء في الساعة الثانية عشرة، ثم العشاء في السادسة مساء، وحجرة مكتبة صغيرة وتقع في الدور الأول، وجدرانها مطلية باللون الأخضر الباهت، وعلى يسار الباب مكتبه في مواجهة النافذة ليصل عينيه بأوراق أشجار الزيزفون فيخضر عظمه. ورغم أن فوق مكتبه شمعدانين من البرونز فلم يكن يضيء سوى شمعة واحدة لتسبح أركان الحجرة في الظلام.. ورغم أنه كان قصير البصر فلم يكن يستخدم نظارات ويفضل أن ينشر أرجل مقعده ليقرب أوراقه من عينيه.. وكان يتعب من الجلوس ولا يتعب من الكتابة.. وكلما تعب من مقعده كان يقف على قدميه ويواصل الكتابة على رف كبير مثبت على الحائط خصيصا لهذا الغرض.. وإذا تأوهت رجلاه من التعب وتوسلتا إليه أن يريحهما كان يجلس على ديوان من الجلد منثورة عليه وسائد من الحرير ويضع رجليه تحته، ويواصل الكتابة أو يقرأ ويدون ملحوظاته.. ومن حوله مئات الكتب المكدسة فوق أرفف مكتبته في انتظار إشارة منه لتسقط بين يديه وتناجيه بضعت باللغة الروسية أو الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية.

وفي المساء كان يتناول شاي الساعة التاسعة مع سونيا وأولاده في حجرة الشاي التي يتصدرها بيانو.. ومن آن إلى آن كان يجلس إلى جوار سونيا ويعزفان معا مقطوعات موسيقية لشوبان أو ليست.

ثم يواصل هو في ركنه عزف سيمفونية يأسه، وتواصل هي في ركنها عزف سيمفونية مللها، فاليوم كالأمس كالغد، يمل تستيقظ في الصباح، ويمل تفطر وتتغدى وتتعشى.. ويمل ترضع طفلها، ويمل تساعد أولادها الصغار في دروسهم وواجباتهم، ويمل تفصل وتخيط قمصانا لزوجها.. ويمل تشتغل بلوفرات تريكو لأولادها بغرزة الملل.. ويمل تطرز مفرشا بغرزة الملل.. ويمل تناجي نفسها.. ويمل تنتظر كلمة حنان من زوجها.. ويمل تنتظر أن يكتب قصة.. ويمل تتململ فوق عشب الملل. ومن حولها أوراق النهار المينة.

ويمل استقبلت آخر بدعة لزوجها: هيامه باللغة العبرية واصراره على أن يتعلمها كي يقرأ التوراة والإنجيل بالعبرية.. ويفضل الخاخام مئير مدرسه بدأ يصدع رأسها بالكلمات العبرية والمناقشات اللاهوتيه مع أساتذه الخاخام.. وسونيا تروجت أديبا لا عالما باللاهوت، تزوجت رجلا لا قديسا.. وتعرف أنها تصلح أن تكون زوجة لرجل ولا تصلح أن تكون زوجة لقديس.

وتخشوع وبصيرة كتبت إلى أختها تانيا: «ليون تولستوي أمام الجمهور ويضيء له الطريق الذي يجب أن يسلكه.. وأنا جزء من الجمهور أعيش معه وأنتمي إليه، وأرى معه النور، وأقر معه بأن ليون هو النور.. ولكني لا أستطيع أن أسير الجمهور وأمشي أمامه إلى جوار النور.. فهناك أشياء كثيرة تمنعني من الانطلاق إلى الأمام: أولادي والوسط الذي أعيش فيه، وعاداتي..».

ويمل احتفلت سونيا مع زوجها وأولادها برأس السنة.. ويأس وفلسفة كتب تولستوي.. «أول يناير ١٨٨٣: نحن نعيش إذن فنحن نموت.. أن نعيش بطريقة حسنة معناه أن نموت بطريقة حسنة.. أتمنى لي وللجميع في السنة الجديدة: أن نحسن موتنا».

ويمل واصلت سونيا العزف على ناي الملل.. ويأس واصل تولستوي العزف على ناي اليأس، ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها..

□